المحاضرة الثانية: نظريات الإيقاع01

***تمهيد:**

يعد الإيقاع من المصطلحات الموسيقية ذات الصلة الوثيقة بالشعر، وهو من المصطلحات العصية على الفهم والتحديد، وذلك راجع إلى اتصاله بالموسيقى من جهة، وبالشعر والنثر من جهة أخرى. ولهذا لا نجد العلماء والباحثين يقفون فيه موقف الحسم في تعريفه.

كما يمثل الإيقاع عنصرا جوهريا في بنية الشعر العربي قديمه وحديثه، وفي الدراسات النقدية الحديثة نجده مرادفا لموسيقى الشعر العربي.

***تحديد مفهوم الإيقاع:**

1/لغة: الإيقاع في اللغة يعني الطرق، والوقع؛ أي وقعة الضرب بالشيء، إذ إن حروفه"الوا والقاف والعين" تدل على سقوط الشيء، فيقال وقع الشيء وقوعا فهو واقع، وهو أيضا اتفاق الأصوات، وتوقيعها في الغناء.

ولعل هذا ما أشار إليه ابن منظور في لسانه: بأنه من إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبينها، أي توقيع الألحان وتأليفها.

2/اصطلاحا:لقد اختلفت تحديدات العلماء والنقاد لمفهوم الإيقاع، لأنه ارتبط أولا بالموسيقى والغناء، ثم انتقل إلى الميدان اللغوي في الأوزان الصرفية والجرس اللفظي، وعلم العروض، ثم امتد إلى بقية الفنون، وعلى الرغم من ذلك ظل مفهومه الدقيق مختلفا من باحث إلى آخر، فهو مصطلح غمضت مفاهيمه وتشابكت مع مصطلحات أخرى كالوزن، والعروض، والقافية وغيرها.

عرف ابن سينا الإيقاع بقوله:"الإيقاع تقدير ما لزمان النقرات، فإن اتفق أن كانت النقرات منغمة كان الإيقاع لحنيا، وإن اتفق أن كانت النقرات محدثة للحروف المنتظمة منها كلام كان الإيقاع شعريا" فهو بذلك يربط بين الإيقاع الموسيقي بالنقرات المنغمة والملحنة، بينما الإيقاع الشعري فمتعلق بنغم الحروف التي يتكون منها الكلام.

أما الفارابي فحده بقوله:" هو النقلة على النغم في أزمنة محدودة المقادير والنسب"، وجاءت في كتاب "الإفصاح في فقه اللغة أن الإيقاع:حركات متساوية الدوار لها عودات متوالية، وقيل هو إيقاع ألحان الغناء وه أن يوقع الألحان ويبينها".

وبالنسبة لتحديدات المعاصرين له فكانت مختلفة؛ لأنه اتجه نحو مستويات أخرى كالمستوى الصوتي، والبلاغي والنبر ، والتنغيم، وغيرها، ومن ذلك تعريف إسماعيل عز

الدين له بأنه:" هو التلوين الصوتي الصادر عن الألفاظ المستعملة ذاتها" بمعنى أن ا إيقاع يقتصر على الجانب الصوتي من خلال التلوينات التي يصطبغ بها الكلام.

أما سيد البحراوي فيرى أن الإيقاع:" هو تنظيم لأصوات اللغة بحيث تتوالى في نمط زمني محدد".

وتجب الإشارة ههنا إلى أن الإيقاع أشمل من الوزن، بحيث يعد عنصرا من عناصر الإيقاع، ولعل هذا التضارب في تحديد الإيقاع بالنسبة إلى الوزن هو ما ولد عدة آراء واتجاهات بين القدامى والمحدثين جمعتها نظريتان اثنتان نوردهما فيما يلي:

أولا/نظرية الكم(الوزن):

محتوى هذه النظرية أن إيقاع الشعر العربي يتولد من توالي الأصوات الساكنة والمتحركة على نحو خاص، بحيث ينشأ عن هذا التوالي وحدة أساسية هي التفعيلة التي تترد على مدار البيت، ومن ترددها نشأ الإيقاع، ومن مجموع مرات التردد في البيت الواحد يتكون ما يسمى بالوزن، فالإيقاع هنا قائم على التكرار الكمي بشكل متراتب ومنظم للمقاطع الشعرية المؤسسة للنواة الإيقاعية.

والخليل بن أحمد (-170ه) هو أوا من تبنى نظرية الكم في نظامه الوزني، إذ لم يثبت إلا ما كان مشاعا ومتداولا بين أغلب الشعراء؛ لأن الشعر كان سابقا لنظرية الوزن الكمي.

وبالتالي استنادا إلى هذه النظرية، فإن الشعر الكمي يبنى على أساس التفعيلة وما يلتزم فيها من عدد من الحركات والسكنات، وأنواع معينة من المقاطع الشعرية؛ لأن العروض الخليلي يركن إلى الكمية المقطعية في تشكيل البنية الإيقاعية للبيت والقصيدة العربية بشكل عام.

وهذا ما وضحه سيد البحراوي في كتابه " العروض وإيقاع الشعر العربي، وذلك يتجسد في قوله:"يبدو العروض العربي حتى الآن كان قائما على إحساس واضح بالكم، وإن لم تنتف إمكانيات الإحساس بالكيف كما تشير بعض الظواهر، ومنها أن شرط التفعيلة والوزن لا يحتم التساوي في كم المقاطع فحسب، بل في ترتيبها أيض، بمعنى أن العلاقة بين الأسباب والأوتاد وبصفة خاصة موقع الوتد بين الأسباب هي العلاقة التي ميزت التفعيلات عن بعضها البعض، رغم تساويها كميا".

إن العروض التقليدي وجد الأمر سهلا بالنسبة إلى أساس النظام الوزني في الشعر العربي، وقد يعود سبب ذلك إلى عدم اطلاع أهله على الأنظمة العروضية الأخرى غير العربية، فلم يناقش العروضيون العرب خصوصا بعد الخليل والأخفش الأوسط، ولهذا يمكن عدهم أصحاب النظرية الكمية كأساس للنظام الوزني الشعري." لقد بنى الخليل بن أحمد

فرضيته العروضية على المتحرك والساكن والمكونات الوزنية، أي السبب والوتد والفاصلة، ويدل ذلك على اعتقاده بنظرية الكم أساسا للنظام الموسيقي للشعر العربي، وكذلك سمى التغييرات الطارئة على تلك المكونات زحافا أي انحرافا من مقدار الكم، ومما يؤيد هذا الرأي تعريف الخليل للقافية الذي يدل على رأيه في نظام الوزن العربي بأنه نظام كمي لا يمكن تجاوزه ولا سيما في القافية".

ومن المعلوم أن تلميذ الخليل الأخفش الأوسط "قام بتحليل علم العروض وتسويغه أكثر من التوصيف الصرف، فأبدى آراءه الدقيقة في كتاب"العروض"، وقلَّ نظيرها في المؤلفات العروضية العربية، ومن الواضح أنه اهتم بكشف أساس النظام الوزني العربي، فهو يعتقد أن العروض العربي ذو نظام كمي حين يقول في وضع العروض:"أما وضع العروض فإنهم جمعوا كل ما وصل إليهم من أبنية العرب، فعروفوا عدد حروفها، ساكنها ومتحركها، وهذا البناء المؤلف من الكلام هو الذي تسميه العرب شعرا، فما وافق هذا البناء الذي سمته العرب شعرا في عدد حروفه ساكنة ومتحركة فهو شعر"".

ولقد رأى العروضيون الآخرون الأمر واضحا ومستقيما فحذوا حذو الخليل وأتباعه، فلم يدخلوا في المناقشات والانتقادات لاعتقادهم بالأساس الكمي للعروض العربي أو إيقاع الكم الوزني.